الأمانة

لم يكـن بالقرية إلا محل حلوى وحيد، كسـدت سـوقه، فكان حجاج يتردد على المدينة من آن لآخر لجلب البسبوسة لأمه العجوز. لم تفتنه المدينة الكبيرة؛ كان يهاب شوارعها الواسعة المزدحمة. يستقل القطار صباحا ليصل إليها قبيل الظهيرة. وفي عشية سفره، يؤكد على سميح ألا يبرح الدار حتى عودته، ويطيعه سميح بالفعل طمعا في قطعة بسبوسة شهية.

يترجل من القطار ويتجه مباشرة إلى بوابة المحطة دون أن يوقفه شيء. يعبر الطريق للناصية المقابلة ثم ينعطف يسارا حيث متجر الحلوى الكبير، يشـتري ما يحتاجه ويجلس على المقهى المجاور ليشرب "سحلب". ينطلق قطار الرجوع بعد سـاعتين من وصول القطـار الأول، فيعود إلى المحطة راضيـا ومنها إلى أمه المنتظـرة. يفعل ذلك في كل مرة كإنسـان آليّ مبرمجًا بدقة هائلة.

في كل مرة تسأله أمه "هل قابلت الرجل؟" فيجيب بنعم. فتعاود السؤال "كما وصفته لك؟" فيومئ برأسه "كما في حلمك تماما".

لم يغير حجاج برنامج رحلته لأشـهر عدة، منذ أن استيقظت أمه يوما وهي تطلب البسبوسـة. كانت رؤيا، كما قالت. جاءها أبوها ومعه رجل أخبرها بأنه ينتظر بالمدينة ليعطيها قطع البسبوسة، أحضرها لها من صحن النبي. وقال إنها من الفردوس الأعلى، تذوقتها في الحال تبركا بالحبيب، ثم بدأت الرحلات ذهابا وإيابا إلى المدينة مثل رحلات حج مقدسة.

زارا معـا الطبيب عندما تكررت الرؤى والطلبـات الغريبة. رأت في بداية الشـتاء بلحًا نابتًا على شجرة تفاح في مدخل القرية، ومضى حجاج يبحث عن البلح في غير أوانه حتى يعطيه لأمه. أوصى جميع التجار وبائعي الخضر والفواكه بالبلدة. كانوا يبحثون معه عن البلح رحمةً بأمه وبه، حتى وجده أحد الباعة بصوبة في قرية مجاورة وباعه له بثمن غال، دعا ربه حينها ألا ترى أمه فاكهة إلا في أوانها.

تحدث معها الطبيب قليلا دون فحوصات ثم طلب منها الانتظار بالخارج. فهم منه حجاج أنها شـيخوخة وأن ما تـراه من رؤى غريبة من أعراضها وأن ما عليه سـوى إراحتها. لذلك ينفذ أوامرها طالما في اسـتطاعته دون مناقشات كثيرة.

لم يبحـث عن الرجل بالمدينة، بل توجه مبـاشرة لمتجر الحلوى. وهل يعقل أن يقف شـيخ وقور مثله في شارع عريض مزدحم باحثا عن رجل قصير من حلم أمه بيده لفائف حلوى.

وعـلى الرغم من أنه يبدو له ضربًا من الجنون، لم يؤخر يوما طلب أمه وإن كان يتذمر من حماقته بينه وبين نفسه أحيانا. حاول المساعدة في رواج سـوق متجر الحلوى بالقرية حتى لا يضطر إلى الترحال للمدينة، لكنه لم يحرك ساكنا. وذات صباح، اصطحب سميح واشتريا كل ما في المتجر ثم فرقـا كل الحلوى على الأطفال والمصلين في المسـاجد. كانت خطتهما هي إفراغ المتجر تماما، حتى يضطر العاملون به إلى خبز وصنع حلوى جديدة طازجة، تستسيغها أمه وتعتقد أنها من صحن النبي. لكنهما عندما مرا على المتجر في صباح اليوم التالي، لم يجدا شـيئا. أخبرهما البائع أنهم لن يصنعوا المزيد إلا بقرب المولد النبوي الشريف.

فوض حجاج أمره إلى الله، واستمرت الرحلات المقدسة للمدينة لكن بخطى متثاقلة. إلى أن توقفت أمه عن طلب البسبوسة، زهدت فيها بعد أن شبعت. وعاد حجاج مرة أخرى إلى الانتظام في عمله بالمدرسة المجاورة. لم يكن حجاج حارس المدرسة فحسب، بل كان شيخها أيضا. يجتمع التلاميذ حولـه بعد انتهاء اليوم الدراسي، فيسرد لهم القصص القصيرة من القرآن بصوته الرفيع الذي يثير سـخريتهم، لكنهم في النهاية كانوا يفضلونه عن كل أساتذتهم ويقضون كثيرا من الوقت بصحبته.

لم يكـن حجاج يدرك أنه سـيفتقد رحلاته القصـيرة للمدينة، غير أنه وجد نفسـه يحكي لتلاميذه عنها وعن السـحلب السـاخن اللذيذ الذي

لم يذق مثله في أي مقهى من مقاهي القرية. كما حكى فاروق، أحد التلاميذ، عن رحلة أخيه الأخيرة إلى المدينة، وعن زيارته للسيرك الكبير هناك. كان منبهرا بالسلاسل الطويلة التي يتعلق بها اللاعب ويقفز. وصمت الجميع حينما بدأ في وصف فقرة الأسد، فأخبرهم بأن الأسد رفض طاعة مدربه الذي قام بضربه كثيرا بالسياط. لكنهم لم يصدقوه وطلبوا منه الكف عن الكذب فليس في وسع أحد ضرب أسد كل هذا الضرب الشديد. ثم بدأوا التعارك بالأيدي.

في فجر إحدى الليالي، وبعد أن فرغا من الصلاة، نادته أمه، وأمرته بالذهاب للمدينة في قطار اليوم، ليقابل الرجل في الحي الكبير ليستلم منه أمتارا من الحرير، حرير أرسله لها أبوها من عند الحبيب. لم يستطع حجاج أن يجيبها لبرهة، لجمت المفاجأة لسانه ووقف مسمرا في مكانه. سألها باقتضاب "هل هذا حلم أيضا؟". حكت له عما رأته قبل آذان الفجر مباشرة، كان والدها بشوشا منير الوجه، بيده أمتار من القماش المزخرف الجميل، وقال لها إن النبي يرسل لها تحياته ويبشرها بالجنة ويرسل لها هذه الهدية حتى يحين اللقاء. ثم أمرها بأن يذهب حجاج لجلبها من المدينة.

فكر حجاج أن أمه في طريقها للجنون، وأنه لا بد أن يصطحبها معه للمدينة ليراها طبيب أكثر خبرة. تأزم الأمر تماما، في البداية كان يشتري البسبوسة لرخص ثمنها وسهولة الحصول عليها، لكنه الآن مضطر إلى

شراء الحرير أيضا. مضطر للبحث عنه وتوفير نفقات خاصة له. دعا الله كثيرا ألا يتكرر الحلم، أن تتوقف أمه عن رؤية الأحلام تماما. لقد لقى منها عرق الجبين.

لكنه على أي حال استغفر الله وعزم أمره. أملت عليه أمه عنوان ولي الله كما قيل في المنام، وبعد استدعاء سميح، انطلق إلى محطة القطار. مسبحا بحمده ومكبرا.

كان الحي الكبير يبتعد قليلًا عن محطة القطار بالمدينة، وكان الوقت ضيقا، ساعتان باقيتان ليلحق بالقطار التالي عائدًا للقرية. فخرج سريعا من المحطة، يتلفت حوله في حذر باحثا عن سيارة أجرة لتختصر عليه الطريق. كان المكان مزدحما بشدة، لم يلحظ حجاج هذا من قبل لأنه لم يضطر يوما إلى انتظار ما يُقله. التصقت الأتربة بجلبابه ولحيته القصيرة وأدمعت عيناه مما جعله يهرع إلى أول سيارة خالية من الركاب وهو يسمي الله. سبقه إليها رجل بصحبة طفل، كاد أن يُدهس الطفل تحت قدميه ليلحق بالسيارة. لكن حجاج لم يتوقف، واستمر في تقدمه نحو السائق. حتى كادا أن يتشاجرا على من له الأحقية في الركوب. فض السائق الاشتباك وحسم الموقف عندما علم أن ثلاثتهم ذاهبون لنفس الحي، فاقترح عليهم أن يركبوا جميعا.

في السيارة، تحول الغضب لضحكات وتعارف سريعًا. بالطبع لم يبح

حجـاج عن سـبب قدومه للمدينة، اكتفى بالقـول إنه جاء ليقضي بعض المصالـح. قـال الرجل إنه قادم من أجل طفله، فلقـد وعده بالذهاب إلى السـيرك المنصوب بالحي الكبير. قال لـ حجاج: "حاول أن تأتي يا شـيخ، روّح عن قلبك ساعة". هز حجاج رأسه في تفهم ولم يجب.

لوهلة، اجتاحت حجاج فكرة السيرك. لم يأت السيرك إلى القرية منذ سنوات، لكنه ما زال يتذكر زيارته الأخيرة له. برق المشهد برأسه، هكذا روى عنه لأصدقائه على المقهى يوما ما:

– ثـم جـاء المهرجون، رجلان وفتـاة جميلة لا ترتـدي إلا القليل من الملابـس. لعبوا وضحكـوا كثيرا، والضوء يتراقص مـن حولهم ويزغلل نظري. كانت هناك حلقة مفرغة معلقة في يمين المسرح، تعلقت بها الفتاة بخفة، وتسلطت الأضواء القوية من خلفها على جسدها. فلم يظهر منها إلا ظلال تتقاطع مع الضوء طـوال العرض في خطوط طولية وعرضية، فيما الموسيقى العالية تتسابق مع صيحات الجمهور للآذان. تكور جسدها اللـدن داخل الحلقة مكونا حلقة داخلية أخرى بها نتوءات بارزة. تركت يديها تتراقصان في الهواء، ثم تعلقت بقدميها كخفاش وشـعرها الطويل ينزلق أسفلها. لم أر ملامحها بوضوح لشدة الضوء الضارب في عينيّ، لكني متأكد أنها كانت تبكي بحزن وجسـدها يتلـون كحرباء داخل الحلقة. في الحقيقة، هي أجمل ما رأيته يوما.

اختلج صدغه وجحظت عيناه، كان منفعلا. هكذا ظل إحساسه بها لسنوات، حتى إنها طاردته في أحلامه طويلا. تبكي بصمت وتتلوى، داخل إطار شباك حجرته، وفي المساحة الصغيرة أسفل سريره، وبين أغصان الأشجار التي تطل على الترعة التي تشق قريته. دائما تتلوى وتتكور وشعرها يتراقص حولها، والضوء في الخلفية يزغلل عينيه.

وصلوا للمبتغى. ترك الرجل يترجل مع ولده أمامه، ثم تبع خطواته. كان السيرك قائما في الناحية الأخرى من الطريق. بوابته صغيرة ضيقة كفرج امرأة، لكنه ينفتح على عالم آخر. لافتته كبيرة، يزينها أضواء حمراء تخطف البصر. طالت وقفته كأنما ينتظر شيئا، كان يصارع طفلا بداخله يتوق للخروج.

أشرق رجل ضخم رغم قصره، سار محاذيا لسور السيرك. ثم عبر الشارع دون انتظار مرور السيارات. لم يره حجاج في البداية، لكن لاحظه حين أربك الطريق. تقدم ناحيته مباشرة، ووقف في مواجهته. كان يتصبب عرقا ويعرقله اللهاث عن الحديث. حسبه حجاج محتاجا فأوشك على صرفه لكنه لحقه وسأله إن كان هو الشيخ حجاج. ذُهل حجاج ولم يرد إلا بعد صمت وبإيماءة من رأسه. فرد الرجل بصوت خفيض معاتبا "أين كنت؟ لقد طفت المدينة من شرقها لغربها! هذه أمانتك".

سلمه اللفافة ثم عبر الطريق مرة أخرى دون تباطؤ وذاب في الزحام.

بهت حجاج. اللفافة الكبيرة بيده وعيناه زائغتان. لا يعرف أين يذهب أو ماذا سيقول. بحث سريعا عن ملاذ ليرى ما بداخل اللفافة. وعلى بعد أمتار، جلس بين شجرتين ووجهه للحائط. تنهد بعمق ليهدأ. وما إن سكنت أنفاسه، حتى فتح اللفافة وهو يسمي الله بخفوت، كان بها أمتار من قماش مزخرف وقطع بسبوسة صغيرة، مقطعة بشكل متساو ومرصوصة في طبق أبيض جميل النقوش، كُتبت على أطرافه "الله أكبر".